الـكندى ورجال الدين

للدكتور أحمد فؤاد الأهوانى

بين الفلسفة والدين ، وبين الفلاسفة ورجال الدين ، خصومة قديمة تذهب إلى أبعد العصور ، ولا تزال سارية حتى اليوم . فقد كانت التهمة التى وجهت إلى سقراط أنه أنكر آلهة اليونان ، ومن أجل ذلك حكموا عليه بالإعدام . وتاريخ الحضارة الإسلامية يسجل صراعاً مستمراً حاداً بين الفلاسفة ورجال الدين ، اشتهر بعضه ، وخفى عنا بعضه الآخر . وأظنك لا تجهل كيف نهض الغزالى يهاجم الفلاسفة هجوماً عنيفاً فى كتابه تهافت الفلاسفة ، وانبرى له ابن رشد يفند أقواله فى « تهافت التهافت » كما ألف فى التوفيق بين الفلسفة والدين ، ويدعو إلى رفع الخلاف عنهما كتاب « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ».

صحيح ، ولـكن هذا من الدين ، وليس هو الدين !

وهذا شأن كل شريف ، يستوى فيه الشرفاء جميعاً ، فما معنى تفريقهم إلى مؤمنين وملحدين وعباد وثن ؟

وهذا كله للحياة الدنيا ، فما الذين نعمله للحياة الأخرى ؟

لا ، بل الدين ، أن تتصل بالعالم العلوى ، وأن تراقب الله ، وأن تعلم أنه مطلع عليك أبداً ، وأنه يراك بعينه فترعاه بقلبك وتطيعه بجوارحك .

هذه غاية الخلق ، وهذا سرّ الوجود ، ما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ، لا عبادة عادة ، وصلاة رياضة ، وصوم استشفاء ، وحج سياحة ؛ بل العبادة التى يحسّ بها القلب حلاوة الإيمان ، ويذوق فيهـا لذة العبودية ، ويستشعر فيها القيام بين يدى الله . ولتتاجر مع ذلك فى ميدان الحياة ، ولتقحم لجّتها ، ولتأخذ أوفر قسط من طيباتها ، ومن علومها ومن فنونها ، ولتـكن قوياً ، ولتـكن غنياً .

هذى حقيقة الدين ، وهذى غاية الحياة ، فهل يصل إلى الغاية من مشى أربعين سنة سائلا عنها ، ضالا طريقها ؟

ألا يا ضيعة هذه السنين الأربعين !

(دمشق س . ب ١٩) **على الطنطاوى**

ولا نحب أن نستعرض كل ما وقع فى تاريخ الفكر ، فالخصومة أشهر من الاستعراض ، ولا تحتاج إلى استرسال . غير أنا نحب أن نشر صفحة طواها التاريخ أجيالا ، وسعى الباحثون عنها فلم يجدوا إلا ظلا وخيالا ، تلك هى صفحة الـكندى ، فيلسوف العرب ، الذى ضاعت كتبه ، وطويت فى بطون المخطوطات ، حتى كشف حديثاً عن جملة من رسائله ، تفصح عن فلسفته ، وتلقى الضوء على مذهبه .

وسوف نحدثك فى هذه الـكلمة عن جانب واحد من جوانب فكره : هو موقفه من الدين ورجاله ، فنذكر طرفاً من احتجاجه وجداله .

فقد شاع عن الـكندى أنه ينتسب إلى يونان ، وأنه كفر بعد اصطناع آرائهم فى الفلسفة ، كما روى المسعودى فى مروج الذهب نقال : « وقد كان يعقوب الـكندى يذهب فى نسب يونان إلى ما ذكرنا : أنه أخ لقحطان ، ويحتج لذلك بأخبار يذكرها فى بدء الأشياء ... وقد رد عليه أبو العباس عبد الله بن محمد الناشى فى قصيدة له طويلة ، ووكد خلطه نسب يونان بقحطان على حسب ما ذكرنا آنفاً فى سدد هذا الباب ، فقال :

أبا يوسف إنى نظرت فلم أجـــد
على الفحص رأيا صح منك ولا عقدا
وصرت حكيما عنـد قوم إذا امرؤ
بلاهم جميعاً لم يجـــد عندهم عندا
أتقرن إلحـــاداً بدين محمد ... لقد جئت فينا يا أخا كندة إدا
وتخلط يونان بقحطان ضلة ... لعمرى لقد باعدت بينهما جدا

ونحن نرى أن الـكندى برىء من التهمتين جميعاً : تهمة الانتساب إلى اليونان ، وتهمة الإلحاد . وإنما شاع ما شاع عنه بدافع إغراء الحساد والمنافسين . ذكر ابن النديم فى الفهرست عند الـكلام على أبى معشر المنجم « أنه كان أولا من أصحاب الحديث . وكان يضاغن الـكندى ، ويغرى به العامة ، ويشنع عليه بعلوم الفلاسفة » .

وأنصفه المغفور له مصطفى عبد الرازق فى بحث له عن الـكندى فقال : « هكذا يبلغ العبث بالتاريخ حداً يشوه من خلق الـكندى ومن عقله ، وقد كان الرجل فى خلقه وفى عقله

من أعظم ما عرف البشر » .

وأكبر الظن أن المعاصرين للكندى أضافوا إليه القول بالانتساب إلى يونان ، لما رأوه من انصرافه إلى البحث فى الفلسفة اليونانية ، ونقل آراء الفلاسفة وكتبهم إلى العربية ، مع تحبيذ هذه الآراء والدفاع عنها . ذكر القفطى فى أخبار الحكماء أن الكندى هو المشتهر فى الملة الإسلامية بالتبحر فى فنون الحكمة اليونانية والفارسية والهندية » . وقال ابن أبى أصيبعة صاحب طبقات الأطباء « حُذَّاق الترجمة فى الإسلام أربعة : حنين بن إسحاق ، ويعقوب بن إسحاق الكندى ، وثابت بن قرة الحرانى ، وعمر بن الفرخان الطبرى » .

كان الكندى إذن من حذاق المترجمين عن اليونانية ، وله فى الدفاع عن الفلسفة اليونانية حجة لطيفة خلاصتها أن الفرد الواحد لا يستطيع بلوغ الحق وحده ، فلا بد من التعاون فى الفكر والأخذ عن المتقدمين إلى أن قال : [1] « وغير ممكن أن يجتمع فى زمن المرء الواحد وإن اتسعت مدته ، واشتد بحثه ، ولطف نظره ، وآثر الدأب ، ما اجتمع بمثل ذلك من شدة البحث ، وإلطاف النظر وإيثار الدأب فى أضعاف ذلك من الزمان الأضعاف الكثيرة . فأما أرسطوطاليس ، مبرز اليونانيين فى الفلسفة فقال : ينبغى لنا أن نشكر آباء الذين أتوا بشىء من الحق ، إذ كانوا سبب كونهم ، فضلا عن أنهم سبب لهم . وإذ هم سبب لنا إلى نيل الحق ، فما أحسن ما قال فى ذلك » .

ثم أضاف بعد ذلك : وينبغى لنا ألا نستحى من استحسان الحق ، واقتناء الحق من أين أتى ، وإن أتى من الأجناس القاصية عنا والأمم المباينة ... »

ولسنا ندرى هل كان الكندى هو الذى بدأ الهجوم على رجال الدين ، أم كان يدفع عن نفسه هجماتهم . ذلك أن الفلسفة لم تكن قد أرغمت فى الحضارة الإسلامية ، ولم يكن العهد بينه وبين عصر المأمون بعيداً ، والمأمون كما نعرف هو الذى شجع حركة النقل وأنشأ فى بغداد دار الحكمة ، وبعث فى طلب كتب الطب والفلسفة وأجرى الأرزاق على المترجمين ، وكان أغلبهم من السريان . والراجح أن الكندى هو أول فيلسوف عربى ، وأول ناقل عربى ، ولهذا قالوا عنه « فيلسوف العرب » .

وكانت ألسنة رجال الدين حادة عنيفة ترمى المشتغلين بالفلسفة بالكفر ، على الرغم من دفاع الخلفاء عنهم فى صدر حركة النقل . وهذا هو السبب الذى دعا الكندى إلى الحذر فى نقل جميع آراء أرسطو ، وفى ذلك يقول : « توقيا سوء تأويل كثير من المتسمين بالنظر فى دهرنا من أهل الغربة عن الحق ، وإن تتوجوا بتيجان الحق من غير استحقاق ؛ لضيق فطنهم عن أساليب الحق ، وقلة معرفتهم بما يستحق ذوو الجلالة فى الرأى والاجتهاد فى الأنفاع العامة الشاملة ، ولدرانة الحسد المتمكن من أنفسهم البهيمية ، والحاجب بسدف سجونه أبصار فكرهم عن نور الحق ووضعهم ذوى الفضائل الإنسانية — التى قصروا عن نيلها ، وكانوا منها فى الأطراف الشاسعة — لموضع الأعداء ، ذباً عن كراسيهم المزورة التى نصبوها من غير استحقاق ، بل للترؤس والتجارة بالدين ، وهم عدماء الدين ؛ لأن من تجر بشىء باعه ، ومن باع شيئاً لم يكن له ، فمن تجر بالدين لم يكن له دين .

ويحق أن يتعرى من الدين من عاند قنية علم الأشياء بحقائقها وسماها كفراً ؛ لأن فى علم الأشياء بحقائقها علم الربوبية ، وعلم الوحدانية ، وعلم الفضيلة .

وجملة كل علم نافع والسبيل إليه ، والبعد عن كل ضار والاحتراس منه ، واقتناء هذه جميعاً هو الذى أتت به الرسل الصادقة عن الله جل ثناؤه ؛ فإن الرسل الصادقة ، صلوات الله عليها ، إنما أتت بالإقرار بربوبية الله وحده ، ولزوم الفضائل المرتضاة عنده ، وترك الرذائل المضادة للفضائل فى ذواتها وإيثارها »

فأنت ترى أن الخصومة كانت عنيفة بين الطرفين ؛ فرجال الدين يرمون الكندى بالكفر والإلحاد ، ويذهبون إلى أنه يجعل يونان أخا قحطان ، والكندى يرى رجال الدين بأنهم يتجرون بالدين وهم عدماء الدين ، ويطلب منهم الحجة إن كان عندهم برهان أو دليل .

يقول عنهم إنهم يتسمون بالنظر وهم أهل غربة عن الحق ، وأنهم يتتوجون بتيجان الحق بغير استحقاق ، يحجب الحسد أبصارهم عن نور الحق ، ويتربعون على كراسى الدين طلباً للرئاسة وذباً عنها

ثم يبين الكندى الصلة بين الحكمة والشريعة ، بل يذهب إلى أن الدين من الفلسفة ، فهى قنية علم الأشياء بحقائقها وفى ذلك علم الربوبية والوحدانية والفضيلة . فالفلسفة توافق الدين ؛ لأن الرسل الصادقة أتت بالإقرار بربوبية الله وحده .

ثم يحتج الكندى لرجال الدين بحجة عقلية تضيق عليهم

(١) كتاب الكندى إلى المعتصم بالله فى الفلسفة الأولى .